خصائص النثر وأنماطه:

فمن الدارسين المحدثين، أحمد أمين،[1] الذي يرى أن النثر في الأندلس تابع صنوه النثر المشرقي، الذي مرّ بخمس مراحل جعل على رأس كل مرحلة أبرز أعلامها:

وقد حامت أساليب النثر الأندلسي حول هذه المدارس وجارت أساليبها، ولكنها حافظت على شخصيتها ومنهجها لا سيما بعد القرن الرابع الهجري كما سنوضحه فيما بعد.

اتجهت الكتابة في عمومها إلى الإيجاز وعدم الاستطراد، كذلك يلاحظ إلى أنها تأثرت بالمفاهيم الإسلامية في المعاني التي جاءت فيها، غلبت سمة السهولة في الأسلوب والوضوح في الألفاظ، وكانت تتجه إلى جزالة الألفاظ ومتانتها أحياناً قليلة، واعتمدت على الجمل القصيرة، والتقسيم في العبارات، والتقابل بينها واستخدام المترادفات، واستخدام المحسنات البديعية بشكل معتدل دون أن نلمح تكلفاً فيها.

وأكثر ما وصل من نصوص نثرية في هذا العصر لأمراء الأندلس، وكتابهم.. وقد آثر أحد الباحثين[2] نثر عصر الخلافة (٣١٦. ٤٢٢هـ) بدراسة علمية، حيث درس أنماط النثر وجعلها في أحد عشر ضرباً هي:

١. الرسائل الديوانية	٢. الرسائل الإخوانية	٣. المراسلات
٤. المحاورات	٥. الخطابة	٦. الوصف
٧. الهجاء	٨. المواعظ	٩. المناظرات والمنافرات
١٠. الحكايات والرسائل القصصية	١١. المقامات	

وهي موضوعات لا تختلف في كثير عن موضوعات النثر في عصر الطوائف كما

---

١ ظهر الإسلام، ٣/٢٠٤ . ٢٠٥، وإليك هذه المراحل التي ذكرها أحمد أمين ملخصة:

١. الخلفاء الراشدون والأمراء الأمويون، ويتسم أسلوبهم بالجمل المتقطعة القصيرة، والإيجاز التام من غير توسع في المعاني، وتأثرهم بالقرآن الكريم.

٢. عبد الحميد الكاتب (ت١٣٢هـ) وقد قيل فيه أنه أول من أطنب، وأول من جعل الترسل فناً قائماً بذاته، وأول من ولدّ المعاني وأول من استعمل التحميدات، وأول من جعل الكتابة الديوانية صناعة، ومال إلى الموازنة في الجمل في صيغتها وعددها وعدم الاكتراث إلى المحسنات البديعية، وعدم التزام السجع.

٣. ابن المقفع (ت١٤٢هـ) وقد عني ببسط المعاني، وتفصيلها، وتكرير الجمل المتقاربة في معناها، كما عني بالتحليل النفسي وتناول القيم الخلقية في موضوعاته، ولم يلتفت كسابقه إلى الاهتمام بالسجع.

٤. الجاحظ (ت٢٥٥هـ) وتقوم طريقته على أساس استخدام الجمل القصيرة، والفقرات المتقابلة، وتعديد النعوت، واستقصاء أجزاء المعنى، بتأديته بعدة جمل، والإفادة من الترادف في اللغة، لاستخدام أساليب الدعاء، وعدم تكلف المحسنات البديعية، كما تقدم من حيث المعاني، على الاعتماد على الفكاهة والسخرية والتنقل من الجد إلى الهزل، والإطناب.

٥. ابن العميد (ت٣٦٠هـ) وتعتمد طريقته على أساس التزام السجع وعدم الخروج عنه، وقسر الجمل لهذا الغرض، والمبالغة في التزويق اللفظي وفي استخدام المحسنات البديعية.

وقد أضاف د. عبد العزيز عتيق (الأدب العربي في الأندلس، ٤٣٤) مرحلة سادسة وأبرز أعلامها:

٦. القاضي الفاضل (ت٥٩٦هـ) طريقته على أساس طريقة ابن العميد وتوسع فيها بالتزام السجع الطويل المنمق، مع مغالاة في فنون البديع الأخرى، كالجناس والطباق والتورية.

٢ فادي رشيد حلاق نحال، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٤.

سيأتينا، وقد درس الباحث أبرز النصوص النثرية، وتحدث عن الوجوه البارزة في النثر إلا أن جل الأعلام الذين وقف عندهم هم من أعلام عصر الطوائف وأعلام الذخيرة لابن بسام، كابن شهيد (ت٤٢٦هـ) وعمر بن الشهيد (٤٤٠هـ) وابني برد الأصغر (توفي بعد ٤٤٠هـ) والأكبر (٤١٨هـ) وابني حزم الأندلسي أبو المغيرة عبد الوهاب بن أحمد (ت٤٣٨هـ)، وأبو محمد علي بن أحمد بن حزم (٤٥٦هـ)، وسنقف فيما يلي على أحد أبرز الكتب في هذا العصر، كتاب العقد الفريد.

العقد الفريد:

من المصادر المهمة في المكتبة العربية انتهى ابن عبد ربه من تأليفه سنة ٣٢٢هـ ويبدو ذلك في أرجوزته التي تحدث فيها عن تاريخ الأندلس ثم توقف عند عام ٣٢٢هـ.[١] فهو يمثل الكاتب في نضجه الثقافي قبيل وفاته بستة أعوام.

وقد اختلف في تسمية الكتاب فرأى عدد من الباحثين المحدثين أن اسمه العقد ورأى آخرون أنه العقد في الأخبار، وأما لفظة (الفريد) فقد أضيفت إليه فيما بعد، ودليلهم في ذلك أن المصادر القديمة التي عرّفت بالكتاب، لم تذكر لفظة الفريد، وأن أول من ذكرها الأبشيهي (ت٨٥٠هـ) في مقدمة كتابه المستطرف من كل فن مستظرف.[٢] ولكن المؤلف يزيل هذا الإبهام، ويحقق لنا اسم الكتاب في مقدمته حيث يقول: "وسميته كتاب. العقد الفريد. لما فيه من مختلف جواهر الكلام، مع دقة السلك، وحسن النظام".[٣]

وأما ذكر القدماء لاسمه مجرداً من كلمة (الفريد) فهو في الغالب على سبيل الإيجاز والاختصار، كما هو مألوف لدينا في ذكر المصادر فنقول: (القلائد، والجذوة، والبغية، والنفح) ونريد بها قلائد العقيان، وجذوة المقتبس، وبغية الملتمس، ونفح الطيب.

ومن عنوان الكتاب نعلم أن المؤلف تصور كتابه في صورة عقد، حباته فريدة وثمينة، ولذلك جعل أبواب كتابه خمسة وعشرين باباً، كل باب باسم جوهرة واختار اثنتى عشرة جوهرة، لأبواب الكتاب، وقابلها باثنتي عشرة أخرى، ثم جعل الواسطة الخامسة والعشرين، فلكل حجارة كريمة في العقد مثيلتها، في النصف الآخر، وقد جعل كل كتاب منها جزئين، فاجتمع منها خمسون جزءاً في خمسة وعشرين كتاباً، وبدأها باللؤلؤة في السلطان، وختمها باللؤلؤة الثانية في الفكاهات والملح.

ومنهجه في مادة الكتاب أنه يختار، وينتقي الأخبار التي هي جديرة بالجمع، ثم ينسقها وفق الموضوعات المتشابهة في أبواب محددة، وقد نوّع وغير في اختيار الموضوعات، ولم

---

١ العقد، ٣٧٧/٢.

٢ المستطرف، ٢٢/١. وينظر ابن عبد ربه وعقده، ٤٩.

٣ مقدمة العقد، ٤/١.